الباب الثاني عشر في التعليم

(التربية بسفر البحر)

شذرات من يومية الدكتور أدامس (*)

يوم ١٤ مايو سنة ـ ١٨٦

انتهينا من الطواف بالرأس ولكن ما أعظم ما بذلنا في سبيل ذلك من الجهد وما أشد ما عانينا من المشاق فقد كانت الريح تزفزف ثلاثة أيام وثلاث ليال زفزفة بلغت من الشدة الى حد ان ساري سفينتنا الاكبر كان فيها يتودد تودد القصدة من يبس الحشيش

لم يكن يؤلمنا على ظهر السفينة سوى أيدي البحارين في ممارسة أعمالهم وما كان أشدني إعجابا في نفسي بسيرتهم في تلك الساعات التي قضيناها في مكافحة البحر ومغالبة الخطر فليست بسالة الملاح من قبيل بسالة الجندي ولكنها تفضلها في رأيي لأن الملاح بما له من الجرأة على الموجودات والفواعل الكونية يكافح الموت مواجهة فلا يحول بينهما الا سمك لوح من الخشب وليس غرضه من الكفاح إبادة نظرائه بل هو في مدافعة عن حياته يعمل لتنجيتهم من الهلاك وناهيك بالبحر عدوا أوتي من العدد ما هو أشدها رهبة في العالم بأسره فانك ترى السفينة على وهنها وكونها ليست الا دولابا من الخشب تطاردها الريح والبرد والبرق وجبال من الموج فهي في الحقيقة تقاوم قوى كون من الاكوان برمتها

ولا مشابهة أيضا بين قدر الملاح وبين ما يفاخر به السفسطي من اجتراءه على معاندة القدر باستدلالاته الدقيقة اجتراء باردا خاليا من العمل هيهات فان قدر الملاح هو ما يجلي في عمله من قوة نفسه وهمتها فتراه مع استعانته بربه لاستمساكه بدينه لا يعتمد بعد ذلك الا على نفسه أعني على صحة بصره وضبط حركاته وقوة أعصابه فان قهره عدوه سلم اليه ولكن هذا لا يكون الا بعد ان يرى آخر سلاح له قد تحطم تلك البسالة تكتسب بالتعلم، وهذه الثقة بالنفس تسري بالمعاشرة، يدلك على ذلك

(*) معرب من باب تربية اليافع من كتاب أميل القرن التاسع عشر.

ان «أميل» كان في أول عهده بالملاحة شديد الروع فما لبث ان ذهب عنه روعه بالتأسي برفقائه لانه كان يرى من الملاحين يرتجف فؤاده وتتزلزل قدماه امام هؤلاء الابطال وهم ثابتون في مواطنهم. كانوا يشتغلون حينا بعد حين بادارة المضخات (الطلمبات) ومعالجة الحبال فلا شيء كالعمل البدني في تقوية القلب فبطالة المسافرين هي التي عند أدنى هيجة تملأ قلوبهم بالمخاوف وأدمغتهم بالخيالات واما الملاح فليس للخوف متسع في وقته .

من مزايا الملاحة أيضا ان مافيها من مكافحة الخطر ينمي في قلوب الملاحين حب الحياة فمن ذا الذي كان يحسب ان الانتحار لايكاد يكون معروفا بينهم .

الضجر من الحياة من ميزات العصور الحديثة وهو أخوفها عندي على الشبان وأشدها إيلاما لنفسي فاني أرى الاطفال يولدون غير مبالين بشيء ساخطين من كل شيء خامدي الاحساس ميتي القلوب فكم من فتاة اذا انكشف لها وهمها الاول مرة فيما كانت تعتقده واقعا تمنت لو أنها ماتت قبل انكشافه وكم من فتى كهول لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ولم يعامله الجد الا معاملة الغلام العارم بصيح قائلا «ما فائدة الحياة» وليس من غرضي هنا ان أبحث عن أسباب هذه المصيبة الملمة بالنفوس والاخلاق وانما غرضي أن أقول لكل هؤلاء المتبرمين : «انظروا الى الملاح تجدوا انه هو الذي عرف قيمة الحياة لانه في كل يوم يذرد عنها اخطارا حقيقية لغاية تافهة وبذلك صار أهلا لان يقدرها حق قدرها»

من أجل هذه الاسباب كلها ارى ان «أميل» الآن في ولاية معلمين حاذقين

واما «نولا» فانها والحق يقال لم تبد من البسالة شيئاً يذكر لانها لبثت مختبأة في احدى زوايا حجرتها فكانت كالنسامة التي يؤكد العارفون باخلاقها انها تتوهم ان غمر رأسها في الظلام منجاة لها من الخطر الملم بها وذلك مااضطر هيلانة الى ان تكون قدوة لها في الاقدام تمكينا لروعها وكان هذا موجبا للاعجاب بها بحق

شجاعة النساء المحمودة

من الخطأ ان يتوهم متوهم ان لافائدة في الشجاعة للنساء فانه ان كان يريد بها الشجاعة الحربية فاني قليل الاعتداد بها في الرجال فاكون أقل اعتدادا بها في

المرأة المترجلة ولكن لايذهب عن ذهنه انه يوجد من ضروب الاقدار غير واحد فان النساء مستهدفات للمخاطر التي نحن عرضة لها ومضطرات لمغالبة مانغالبه من حوادث الكون الخارجي وقد يوجد من الاحوال ماتتوقف حياتهن فيها بل وحياة أطفالهن على سكينتهن ورباطة جأشهن فقوة العزيمة وثبات الجنان هما من الاخلاق اللازمة للمرأة لزومهما للرجل .

من المصائب ان تسوء تربية الفتيات الى حد ان يتوهمن ان تكلف ضروب الفزع القاتل عند كل مناسبة خصوصا بحضرة الشبان مما يلفت الانظار اليهن فيقول من يراهن في هذه الحالة انهن يقصدن ان يظهرن في شكل الحمائم المروّعة ويجمل أن يوعظن بأن الخوف لاحسن فيه مطلقا وانه يجب عليهن لانفسهن اذا احدق بهن الخطر ان يجتهدن في استشعار الاطمئنان والسكينة ان كن يردن ان يصرن مثاراً للاعجاب والاستحسان . ولا صحة لما يعتقدنه على ما يظهر من ان ثبات جنان المرأة يسيء خلقها بل اني اجد جمالا وشرفا فائقين في تلك الذات اذا كانت مع تجردها من القدرة على المهاجمة بل ومن قوة المدافعة تقتحم الخطر بقوة جاش تكافئ قوة الرجل .

انا اعلم أن من الاوهام السخيفة اعتقاد ان جفاء الطبع من لوازم الشجاعة ولكني اود لو ادري متى شوهد ان الشجاعة الحقيقية غيرت من رقة المرأة ورحمتها وغير ذلك من فضائلها حاشاها من هذا وان الجبن والاثرة لهما اللذان يوجبان قسوة القلب وغلظه

سل أما جبانا ان تشهد عملا جراحيا يعمل في جسم ولدها لتسليه وتسري من أمله تجبك بانها شديدة الاحساس كثيرة التأثر وبئس العذر عذرها فما مرادها الا الاحتماء من كلفة التسخير . ثم لايخيلن احد ان قوة العزيمة والسلطان على النفس أو الشجاعة الحقيقية هي من الاخلاق التي لاينتفع بها الا في طائفتين من الاعمال هما الحرب والملاحة فاني أرى ان منفعتها تتعدى الى كثير من الامور الاخرى لان الرجل والمرأة مهددان كل يوم في القوم الذين يعيشان بينهم بآلاف من الاعداء والمعاطب ولان البحر لايقصد الا إزهاق أرواحنا وما اكثر مايعرض لنا من الاحوال الخطرة التي يقصد فيها نقص اعراضنا والذهاب بحرماتنا اه

يوم ٢٠ مايو سنة ١٨٦٠

تشق سفينتنا « المونيتور » بجلالة خطرها عباب امواج المحيط الهادي، وتتخذها في سبيلا وقد عادت « لولا » بعد زوال الخطر الى ما كانت عليه من الابتهاج والسرور فهي تمرح وتعدو على ظهر السفينة مع ما لها من الحركات محافظة لتوازنها وتبدو قدماها الصغيرتان في خفيها من تحت حلتها كأنهما فأرتان . اه

يوم ٢٥ مايو سنة ١٨٦٠

رسونا غداة اليوم في جوان فرنانديز لضبط مقياس الزمن (الكرونومتر) وهذه البقعة مركبة في الحقيقة من ثلاث جزر يتألف منها مجموع متلاصق الاجزاء وتسمى الاولى منها ماسانيرا والثانية ماسافويرا والثالثة اسلادولوبوس وهي صخرة تكاد تكون جرداء اكثر الثلاثة تطوحا نحو الجنوب ويلقبها الملاحون بجزيرة القيطس (عجل البحر) لان القياطس تأوي اليها طلبا للراحة والدفء

الجزيرتان الاوليان ماسانيرا وماسافويرا ممتلئتان شجرا وان ومع اجتهاد الحكومة التابعتان لها في تعميرهما لا تزال قفرا لا يعمرها الا المعز الوحشية وهي كثيرة فيهما ويقال انها كانت تزيد عن ذلك لو لم تسلط عليها كلاب وحشية مثلها تقاتلها وتفترسها وليت شعري الى أي حالة تصير هذه الكلاب اذا ابادت جميع ما هنالك من المعز؟ لابد ان يأكل بعضها بعضا .

وجزيرة جوان فرنانديز تذكر بواقعة عظيمة جرت فيها وهي :

انه في سنة ١٧٠٤ رسا الملاح الانكليزي دامبير على ماسانيرا فألقى فيها وكيله على القوارب المدعو إسكندر شالكرك اثر مشاجرة احتدمت بينهما ترك هذا التعيس في هذه الجزيرة القفر غير مزود اياه الا بشيء يسير من الغذاء والعدد فعاش هنالك اربع سنين وأربعة أشهر من صيده وصناعته وفي سنة ١٧٠٩ اتفق لاثنين من صيادي النيران الوحشية ان نزلا بالجزيرة فعثرا على ذلك الرجل فرقا لحاله وحملاه معهما الى أوربا

وكان شالكيرك قد قيد بعض مذكرات في طريقة عيشته على تلك الجزيرة البلقع فاستعان بها دانيال دوفو فيما بعد على تأليف كتابه العجيب الذي عرفه الناس جميعا ولشد ما يبديه الآن « أميل » ولولاه من الاهتمام بمطالعة وقائع روبنس كروزويه . اه

يوم ٥ يونيه سنة ١٨٨٦

يابشرى هذه أرض هذه أرض

بعد ان سافرنا ثمانين يوما دخلنا خليج قلاو وهو من اجمل مناظر الدنيا وأبصرنا جزيرة لورنزو وترتفع حيالنا اقول ترتفع واقل مافي هذا اللفظ انه حقيقة في استعماله هنا فقد نتج من حساب أحد العلماء أن سواحل سان لورنزو كسواحل الشاطئ المجاورلها ارتفعت عن سطح البحر خمسا وثمانين قدما انكليزية من عهد العصور التي يعرفها التاريخ

صخور هذه الجزيرة يعمرها آلاف مؤلفة من الطيور اخص بالذكر منها طيرا رأسه اسمر الى السنجابية وبطنه أبيض ناصع وذنبه اسود يقال انه هو الذي يحصل منه أهل الجزيرة على السهاد المعروف بالغوانو وهو ثروتهم الكبرى لان الذهب والفضة كادا ينضبان من معادن بلاد البيرو فهي تتسلى عن الحرمان منهما ببيع القذر ولا غرو فالذهب مذهب ومفسد والقذر موجد ومخصب . اه

يوم ٦ يونيه سنة ١٨٨٦

رسونا في مينا سيودال دولوس ريس

اخص ماادهش «أميل» و«لولا» عند هبوطهما على البر كثرة العقبان التي تسكن سواحل هذه الجهة فانها ترى عند كل خطوة في الشوارع وعلى سطوح المساكن وقد رأينا منها طائفة تبلغ الستين أو الثمانين نائمة وهي جاثمة على جدار ورؤسها مختبئة تحت اجنحتها ذلك أنها ليس من خلقها الجفلان ولا تخشى من السكان شيئا لانهم يجلونها . هذه الطيور في غاية الشره وشرهها نفسه نعمة من نعم الله على اهل تلك البلاد لانه يساعد على حفظ الصحة في المدن وكان «لاميل» فيما أرى اخطأ غريبة في شأنها فانه لما سمع الزراية عليها من دروسوا اخلاقها في الكتب كان يخيلها سلابة تسكن الهواء أكلة دنيئة للرمم فلم يمض الا ساعات قلائل حتى زال الوهم وتبين له خلاف ما كان يتوهمه انه محتسبة عينها الخالق سبحانه في البلاد الحارة للقيام على تنظيف الطرق العامة فهي تنقيها عما يلقى على الابواب من القمام واللحوم الفاسدة ومما يطرح فيها من الجيف ويدل ماتبديه هذه الطيور من الاطمئنان الى الانسان والثقة به حق الدلالة على شعورها بنفعها له .

المسافة بين قلاو وليفرسخان اسبانوليان وسنبلغها غدا . اه